مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 12 عدد: 01 السنة 2026 E-ISSN:2588-2325

التحولات المنهجية في الأنثروبولوجيا: من الأساليب التقليدية إلى المعالجة الحديثة

Methodological Transformations in Anthropology: From Traditional Approaches to Modern Analytical Frameworks

زهير بخوش*، جامعة باجي مختار-عنابة، zouhair.bakhouche@univ-annaba.dz

تاريخ الإرسال: 2026/04/18 تاريخ القبول: 2026/05/17 تاريخ النشر: 2026/06/30

ملخص:

يتناول هذا المقال التحولات المنهجية التي عرفتها الأنثروبولوجيا، من الأساليب التقليدية إلى المعالجات الحديثة، من خلال تحليل تطور أدوات البحث ومفاهيمه الإجرائية في دراسة الظواهر الثقافية. فقد ارتبطت الأنثروبولوجيا في بداياتها بالمقاربات الكلاسيكية التي ركزت على الملاحظة بالمشاركة والعمل الميداني الطويل داخل مجتمع واحد، مع السعي إلى تقديم وصف شامل للثقافة بوصفها نسق متماسك. غير أن التحولات الاجتماعية المتسارعة، وتنامي العولمة، وتزايد التفاعلات الثقافية العابرة للحدود، كشفت محدودية هذه المقاربات، ودعت إلى مراجعة الأسس المنهجية التقليدية. في هذا الإطار برزت اتجاهات منهجية حديثة أعادت صياغة مفهوم الحقل الأنثروبولوجي، حيث ظهرت الإثنوغرافيا متعددة المواقع التي تتبع الظواهر الثقافية عبر فضاءات اجتماعية مختلفة، بدل حصرها في مجتمع واحد. كما أسهم البراديغم التأويلي في نقل الاهتمام من الوصف الخارجي إلى تحليل المعاني والرموز الثقافية، مع التركيز على السياق الثقافي بوصفه محددًا أساسياً للدلالة. إلى جانب ذلك، أدت المناهج النقدية وما بعد الحداثية إلى إبراز أهمية الانعكاسية، وإعادة النظر في علاقة الباحث بالمبحوث، بما يجعل المعرفة الأنثروبولوجية نتاجًا لتفاعل معرفي وليس مجرد نقل موضوعي للواقع.

كما عرف البحث الأنثروبولوجي توسعا في توظيف أدوات تحليلية جديدة، مثل تحليل الخطاب والمقاربات متعددة التخصصات، مما أتاح فهما أكثر عمقا للتحولات الاجتماعية والثقافية. وبذلك انتقلت الأنثروبولوجيا من نموذج وصفي يركز على الثبات الثقافي إلى نموذج

* المؤلف المرسل

تحليلي يهتم بدينامية الثقافة والتغير الاجتماعي. ويخلص المقال إلى أن هذه التحولات المنهجية أسهمت في تطوير الأنثروبولوجيا، وجعلتها أكثر قدرة على دراسة المجتمعات المعاصرة في ظل التعقيد الثقافي والتغير المتسارع.

الكلمات المفتاحية:المنهجية، الأنثروبولوجيا، الاثنوغرافيا، القياس، التأويل.

Abstract:

This article examines the methodological transformations in anthropology, from traditional approaches to modern analytical frameworks, by analyzing the evolution of research tools and operational concepts in studying cultural phenomena. Early anthropology relied on classical approaches centered on participant observation and long-term fieldwork within a single community, aiming to provide comprehensive descriptions of culture as a coherent and stable system. However, rapid social changes, globalization, and increasing transnational cultural interactions revealed the limitations of these traditional methods and prompted a reassessment of their methodological foundations.In this context, new methodological trends emerged, reshaping the concept of the anthropological field. Multi-sited ethnography, for instance, follows cultural phenomena across diverse social spaces rather than confining them to one community. Interpretive approaches shifted attention from external description to the analysis of meanings and cultural symbols, emphasizing the role of context in shaping significance. Additionally, critical and postmodern perspectives highlighted reflexivity and reconsidered the relationship between researcher and participants, framing anthropological knowledge as a product of interactive engagement.

Anthropological research has also witnessed an expansion in the use of new analytical tools, such as discourse analysis and interdisciplinary approaches, enabling a deeper understanding of social and cultural transformations. Thus, anthropology has shifted from a descriptive model focused on cultural stability to an analytical model concerned with the dynamics of culture and social change. The article concludes that these methodological shifts have contributed to the development of anthropology, making it more capable of studying contemporary societies amidst cultural complexity and rapid change.

Keywords: methodology, anthropology, ethnography, quantitive, interpretive,

مقدمة:

تعد الأنثروبولوجيا من الحقول المعرفية التي ارتبط تطورها بتحولات منهجية عميقة، انتقلت خلالها من الاهتمام بالوصف الخارجي للثقافات إلى محاولة فهمها من الداخل، ثم إلى تحليلها وتأويلها في سياقاتها المتعددة. وفي هذا المسار لعب القياس الإثنوغرافي دورا مركزيا في بناء المعرفة الأنثروبولوجية، حيث اعتمد الباحث على أدوات ميدانية تقليدية مثل الملاحظة بالمشاركة، والمقابلة، واليوميات الحقلية، وجمع الروايات الشفوية، بهدف توصيف الظواهر الثقافية والاجتماعية. غير أن هذه المرحلة، رغم أهميتها التأسيسية، ظلت في كثير من الأحيان محكومة بمنطق القياس الذي يركز على تسجيل المعطيات أكثر من توظيفها في إنتاج قيمة معرفية أو اجتماعية أوسع. ومن هنا برزت الحاجة إلى تجاوز منطق القياس الإثنوغرافي نحو ما يمكن تسميته بالتقويم الذكي، الذي لا يكتفي بجمع البيانات، بل يسعى إلى تحليلها بعمق، وربطها بسياقاتها، وتوظيفها في صناعة قيمة معرفية وتنموية.

لقد اتسم القياس الإثنوغرافي التقليدي بمحاولة الإمساك بالواقع الثقافي كما هو، من خلال وصف العادات والطقوس والبنى الاجتماعية، إلا أن هذا القياس كان في الغالب أقرب إلى **التوثيق** منه إلى **التقويم**. فالقياس يجيب عن سؤال: ماذا يحدث؟ بينما يسعى التقويم إلى الإجابة عن أسئلة أعمق من قبيل: ما معنى ما يحدث؟ وما دلالاته؟ وما أثره؟ وكيف يمكن توظيفه؟ وهنا يظهر التحول الابستمولوجي والميتودولوجي في البحث الأنثروبولوجي المعاصر، حيث لم يعد الهدف هو تجميع أكبر قدر ممكن من المعطيات الإثنوغرافية، بل الانتقال إلى تحليلها وتقويمها بطرق ذكية تعتمد على المقارنة، وتفسير المعنى، والاستفادة من الأدوات الرقمية، وتكامل المناهج. إن التقويم الذكي في البحث الأنثروبولوجي يقوم على مجموعة من المرتكزات، أولها إعادة قراءة المعطيات الإثنوغرافية في ضوء سياقات متعددة، بحيث لا تفهم الظاهرة الثقافية بمعزل عن تحولات المجتمع أو عن التفاعلات المحلية والعالمية. وثانيها توظيف أدوات تحليل حديثة، سواء كانت رقمية أو منهجية، تساعد على تنظيم البيانات النوعية، واستخراج الأنماط المتكررة، وبناء تفسيرات أكثر عمقا. أما المرتكز الثالث فيتمثل في الطابع التفاعلي للتقويم الذكي، إذ لم يعد الباحث الأنثروبولوجي مجرد ملاحظ خارجي، بل أصبح شريكا معرفيا يتفاعل مع الفاعلين الاجتماعيين، ويعيد بناء المعرفة معهم، بما يعزز مصداقية النتائج وقيمتها.

ومن خلال هذا التحول، يصبح البحث الأنثروبولوجي موجها نحو صناعة القيمة، وليس مجرد إنتاج معرفة وصفية. وصناعة القيمة هنا تعني أن النتائج الإثنوغرافية يمكن أن تسهم في فهم التحولات الاجتماعية، ودعم السياسات الثقافية، والحفاظ على التراث، وتعزيز التنمية

المحلية. فعندما يتم تقويم الممارسات الثقافية بذكاء، يمكن الكشف عن إمكاناتها الكامنة، سواء في مجال الاقتصاد الثقافي، أو التربية، أو الصحة، أو التماسك الاجتماعي. وهكذا يتحول العمل الإثنوغرافي من نشاط توثيقي إلى أداة فاعلة في إنتاج معرفة قابلة للتطبيق.كما أن التقويم الذكي يفتح المجال أمام الأنثروبولوجيا للانخراط في قضايا معاصرة، مثل التحولات الرقمية، والهويات المتغيرة، والتفاعلات العابرة للحدود. ففي هذه السياقات تصبح البيانات الإثنوغرافية أكثر تعقيدا، مما يتطلب أدوات تحليل متقدمة، وقدرة على الربط بين مستويات مختلفة من الواقع الاجتماعي. وهنا تتجلى أهمية الانتقال من القياس إلى التقويم، لأن المعطيات لم تعد تفهم في إطار واحد، بل ضمن شبكات من العلاقات والمعاني.وفي ضوء ذلك يمكن القول إن التحول من القياس الإثنوغرافي إلى التقويم الذكي يمثل مرحلة جديدة في تطور البحث الأنثروبولوجي، حيث ينتقل الباحث من مجرد تسجيل الواقع إلى المشاركة في تفسيره وإنتاج قيمة منه. وهذا التحول يعيد توظيف القياس ضمن عملية أوسع تجعل من البيانات الإثنوغرافية مادة للتحليل، ومن التحليل مدخلا لصناعة معرفة ذات أثر علمي واجتماعي. وبذلك تصبح الأنثروبولوجيا المعاصرة أكثر قدرة على فهم العالم المتغير، وأكثر إسهاما في بناء معرفة مفيدة للمجتمع، وأكثر انخراطا في صناعة القيمة الثقافية والتنموية.

1_ المنهج الأنثروبولوجي: حُلة جديدة

تعتمد هذه الورقة البحثية على مقاربة تحليلية نظرية ذات طابع تركيبي، تنطلق من مراجعة مفاهيمية موسعة للأدبيات الأنثروبولوجية التي تناولت إشكالية القياس الإثنوغرافي والتقويم النوعي والتقويم الذكي، وذلك في سياق التحولات المنهجية التي شهدها البحث الأنثروبولوجي المعاصر. وتستند هذه المقاربة إلى تحليل تطور المفاهيم داخل الحقل الأنثروبولوجي، من خلال تتبع انتقال الاهتمام من القياس بوصفه أداة لضبط المعطيات إلى التقويم بوصفه عملية تأويلية تفاعلية تهدف إلى إنتاج معرفة ذات دلالة ثقافية وتطبيقية. وقد تم توظيف التحليل المفاهيمي كأداة مركزية للكشف عن الفروق الدقيقة بين مفهومي القياس والتقويم، ليس فقط على مستوى التعريفات النظرية، بل أيضا من حيث الأهداف المعرفية، والأدوات المنهجية، وطبيعة النتائج المنتجة. فالقياس في صيغته الكلاسيكية يرتبط بمحاولة تنظيم الظواهر الاجتماعية وفق مؤشرات قابلة للتحديد، "ولقد بذل الباحثون الاثنوغرافيون مجهودات للوصول إلى بحث متكامل وتركزت تلك الجهود حول تحديد مكونات الوصف الثقافي من أجل الوصول إلى نظرية تسمح بتقييم عمليات الوصف المتتالية، كما تسمح بصياغة مناهج ربما كانت أكثر فعالية في الوصول إلى قضايا عامة مستمدة من تلك الملاحظات التي يتم تسجيلها" (محجوب و يحيى مرسي، 2005، صفحة 12)، في حين أن التقويم، خاصة في صيغته الذكية، يتجاوز ذلك ليشمل تفسير المعاني،

وتحليل السياقات، وبناء معرفة قادرة على التفاعل مع التحولات الاجتماعية. ومن هذا المنطلق تم اعتماد مقارنة منهجية بين المقاربات الإثنوغرافية التقليدية، التي ركزت على الوصف الميداني وتحليل البنى الثقافية في إطارها المحلي، والمقاربات المعاصرة التي توظف الأدوات الرقمية والتحليل متعدد المستويات، بما يسمح بفهم الظواهر الثقافية في سياقها الديناميكي المرتبط بالعولمة والتحول الرقمي. وقد هدفت هذه المقارنة إلى إبراز التحول في الممارسة البحثية الأنثروبولوجية من نموذج يعتمد على جمع المعطيات ووصفها، إلى نموذج أكثر تعقيدا يقوم على تحليل البيانات وتوظيفها في إنتاج معرفة قابلة للتطبيق.

وتقوم هذه المنهجية كذلك على تحليل تركيبي يسعى إلى بناء إطار تفسيري يربط بين ثلاثة مفاهيم محورية هي القياس الإثنوغرافي، والتقويم الذكي، وصناعة القيمة في البحث الأنثروبولوجي. وقد تم ذلك من خلال تتبع مسار البيانات الإثنوغرافية منذ لحظة جمعها في الحقل، حيث يعتمد الباحث على الملاحظة بالمشاركة والمقابلات المفتوحة وتوثيق الممارسات الثقافية، مرورا بمرحلة تنظيم هذه البيانات وترميزها وفق محاور موضوعية، ثم تحليلها باستخدام أدوات نوعية ورقمية تسمح بالكشف عن الأنماط والعلاقات الدلالية، وصولا إلى مرحلة توظيفها في إنتاج معرفة ذات قيمة علمية ومجتمعية. ويهدف هذا المسار المنهجي إلى إظهار أن البيانات الإثنوغرافية لا تمثل غاية في حد ذاتها، بل تشكل مادة أولية لعملية تقويم ذكي تسعى إلى تفسير التحولات الثقافية وتقديم قراءات متعددة المستويات. وفي هذا السياق تم الاعتماد على أمثلة تطبيقية عامة مستمدة من بحوث إثنوغرافية معاصرة، توضح كيفية الانتقال من الوصف إلى التقويم التفاعلي للمعطيات الثقافية، من خلال تحليل الخطاب، وتتبع التغيرات في الممارسات الاجتماعية، وربطها بالسياقات الاقتصادية والسياسية والتكنولوجية. كما تم توظيف المقاربة النوعية في تحليل العلاقة بين الباحث والمجتمع المدروس، انطلاقا من اعتبار أن التقويم الذكي يقوم على التفاعل مع الفاعلين الاجتماعيين وإشراكهم في إنتاج المعرفة. ويتيح هذا التوجه تجاوز التصور التقليدي للباحث بوصفه ملاحظا خارجيا، ليصبح فاعلا معرفيا يسهم في بناء المعنى من خلال الحوار مع المشاركين، وتفسير تمثلاتهم الثقافية، وتوجيه النتائج نحو تحقيق قيمة معرفية وتنموية. وبذلك تتكامل هذه المنهجية بين التحليل النظري والمقاربة التطبيقية، بما يسمح ببناء إطار بحثي يستجيب لمتطلبات الأنثروبولوجيا المعاصرة، ويعزز قدرة البحث على إنتاج معرفة علمية ذات أثر اجتماعي، تدعم السياسات الثقافية وتساعد على فهم التحولات الاجتماعية في سياقها المتغير.

2_ القياس في الانثروبولوجيا التقليدية:

يعد القياس في الأنثروبولوجيا التقليدية أحد المحاور الإبستمولوجية الأساسية التي رافقت تشكل هذا الحقل المعرفي منذ بداياته الأولى، حين سعت الأنثروبولوجيا إلى ترسيخ ذاتها

كعلم اجتماعي يمتلك أدواته المنهجية الخاصة وقدرته على إنتاج معرفة موضوعية حول الإنسان والثقافة. أستخدم مصطلح "القياس في معنى واسعا يفيد العد، والحساب، والتقييم، والاحصاء" (Mucchielli, 1982, p. 31) وقد ارتبط مفهوم القياس في هذا السياق بمحاولة ضبط الظواهر الاجتماعية والثقافية وفق أدوات قابلة للملاحظة والتنظيم، سواء عبر المؤشرات الكمية أو الوصف النوعي المنهجي. غير أن هذا المسار لم يكن خطيا أو خاليا من التوترات المعرفية، إذ ظل القياس في الأنثروبولوجيا يتأرجح بين النزعة الوضعية التي تبحث عن قوانين عامة، والنزعة التأويلية التي ترى الثقافة منظومة رمزية معقدة لا يمكن اختزالها بسهولة. وفي هذا الإطار، يمكن تناول القياس في الأنثروبولوجيا التقليدية من خلال ثلاثة عناصر مترابطة: القياس الكمي في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، والوصف النوعي في الإثنوغرافيا، ثم حدود القياس الكلاسيكي في فهم الثقافة.

2_1_ القياس الكمي في الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

ارتبط القياس الكمي في الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالسعي إلى إضفاء طابع علمي صارم على دراسة المجتمعات البشرية، خصوصا في المرحلة التي تأثرت فيها الأنثروبولوجيا بالنموذج الوضعي في العلوم الطبيعية. فقد حاول الباحثون الأوائل استخدام أدوات إحصائية ومؤشرات عددية لتصنيف المجتمعات، وتحليل أنماط القرابة، وبنية السلطة، وأنظمة التبادل الاقتصادي. وكانت الفكرة الأساسية تقوم على إمكانية تحويل الظواهر الاجتماعية إلى وحدات قابلة للعد والمقارنة، بما يسمح بإنتاج تعميمات تتجاوز الحالات المحلية. ومن هنا ظهرت دراسات تعتمد على الجداول الإحصائية، والقياسات الديموغرافية، وتحليل معدلات الزواج والطلاق، وعدد أفراد الأسر، وأنماط التوزيع السكاني، باعتبارها مؤشرات لفهم التنظيم الاجتماعي.

كما ساهم القياس الكمي في بناء نماذج مقارنة بين المجتمعات، إذ تم استخدام بيانات رقمية حول أنظمة القرابة أو توزيع السلطة السياسية لتصنيف المجتمعات إلى أنماط، مثل المجتمعات الأبوية أو الأمومية، المركزية أو اللامركزية. وقد مكن هذا التوجه من تطوير منهج المقارنة الأنثروبولوجية، الذي سعى إلى الكشف عن انتظامات عامة في التنظيم الاجتماعي. كذلك اعتمدت الأنثروبولوجيا الاجتماعية على المقاييس الكمية في دراسة الاقتصاد التقليدي، حيث تم حساب معدلات الإنتاج والاستهلاك، وأنماط التبادل، وتوزيع الموارد، مما أتاح تصورا بنيويا للعلاقات الاقتصادية داخل المجتمع. ومع ذلك لم يكن القياس الكمي مجرد عملية تقنية، بل ارتبط أيضا برؤية معرفية ترى المجتمع نظاما يمكن تحليله من خلال متغيرات قابلة للقياس. فقد تم التعامل مع الثقافة باعتبارها مجموعة من العناصر التي يمكن تفكيكها وتحويلها إلى مؤشرات رقمية. غير أن هذا التوجه رغم أهميته في تنظيم البيانات، واجه صعوبات تتعلق بطبيعة الظواهر الثقافية التي تتسم بالتعقيد والتعدد الدلالي. فالرموز والمعاني لا يمكن اختزالها بسهولة في أرقام، كما أن

العلاقات الاجتماعية غالبا ما تتجاوز البعد الكمي إلى أبعاد رمزية وتأويلية. ومع ذلك ظل القياس الكمي أداة مهمة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، خاصة في الدراسات المقارنة واسعة النطاق، وفي تحليل التحولات الاجتماعية التي تتطلب بيانات كمية دقيق.

2_2_ الوصف النوعي في الاثنوغرافيا:

إذا كان القياس الكمي قد حاول ضبط الظواهر الاجتماعية عبر الأرقام والمؤشرات، فإن الإثنوغرافيا قدمت شكلا آخر من القياس يعتمد على الوصف النوعي المتعمق. فالوصف الإثنوغرافي يمثل عملية منهجية تهدف إلى التقاط المعاني الكامنة في الممارسات اليومية. وقد اعتمد الباحث الإثنوغرافي على الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات المفتوحة، وتدوين اليوميات الميدانية، باعتبارها أدوات لقياس الثقافة من الداخل، أي من خلال فهم السياق الذي تنتج فيه المعاني.

ويقوم الوصف النوعي في الإثنوغرافيا على فكرة أن الثقافة ليست مجرد سلوك ظاهر، بل شبكة من الرموز والدلالات التي ينبغي تفسيرها انطلاقا من فكرة "أن البحث الاثنوغرافي يهدف إلى الوصول لفهم معمق للطريقة التي يتبعها الأفراد المنتمون الى الثقافات المختلفة والثقافات الفرعية في إدراك معنى واقع حياتهم التي يعيشونها" (حياة، 2023، صفحة 811) فإن القياس هنا لا يتم عبر الأرقام، بل عبر كثافة الوصف ودقته، وقدرة الباحث على إعادة بناء العالم الاجتماعي كما يعيشه الفاعلون. وقد أدى هذا التوجه إلى تطوير مفهوم الوصف الكثيف، الذي يسعى إلى تقديم تفاصيل دقيقة حول الأفعال الاجتماعية، بما يسمح بفهم معناها في سياقها الثقافي. وهكذا أصبح القياس النوعي عملية تأويلية، تعتمد على تحليل اللغة، والطقوس، والعلاقات اليومية، وليس مجرد تسجيل الوقائع.

كما أتاح الوصف الإثنوغرافي إمكانية دراسة الظواهر الثقافية الدقيقة التي يصعب قياسها كميا، مثل القيم، والمعتقدات، والرموز الدينية، وأنماط التفكير. فقد استطاع الباحثون من خلال العمل الميداني الطويل بناء معرفة عميقة حول المجتمعات المدروسة، تتجاوز الأرقام إلى فهم البنية الرمزية للثقافة. وهذا ما أشار له "ميلز وهوبرمان أن المنهج الإثنوغرافي يهدف الى الكشف عن غير المتوقع والمستور والمسكوت عنه" (حياة، 2023، صفحة 812) غير أن هذا النوع من القياس يطرح بدوره إشكاليات تتعلق بموضوعية الباحث، وحدود التأويل، وإمكانية تعميم النتائج. فالوصف النوعي يعتمد إلى حد كبير على خبرة الباحث، وعلى قدرته على التفاعل مع المجتمع، مما يجعل المعرفة المنتجة مرتبطة بالسياق وبالذات الباحثة.

2_3_ حدود القياس الكلاسيكي في فهم الثقافة:

ورغم هذه التحديات فإن الوصف النوعي في الإثنوغرافيا شكل نقلة نوعية في مفهوم القياس، إذ نقل الاهتمام من الكمية إلى المعنى، ومن المؤشرات العددية إلى التجربة المعيشة. وقد

ساهم هذا التوجه في إعادة تعريف الأنثروبولوجيا كعلم يسعى إلى فهم الإنسان في سياقه الثقافي، وليس مجرد تصنيفه وفق معايير عامة.رغم الجهود التي بذلتها الأنثروبولوجيا التقليدية في تطوير أدوات القياس، فإن هذا النموذج الكلاسيكي واجه حدودا معرفية واضحة، خاصة مع تعقد الظواهر الثقافية وتعدد مستوياتها. فالقياس الكمي، رغم قدرته على تنظيم البيانات، غالبا ما يعجز عن التقاط المعاني الرمزية العميقة التي تشكل جوهر الثقافة. كما أن تحويل الظواهر الاجتماعية إلى مؤشرات رقمية قد يؤدي إلى تبسيط مفرط، يختزل التعقيد الثقافي في متغيرات محدودة.

أما القياس النوعي رغم عمقه التأويلي، فإنه يواجه بدوره حدودا تتعلق بالذاتية وإمكانية التحقق. فالوصف الإثنوغرافي يعتمد على تجربة الباحث، مما يجعل المعرفة المنتجة مرتبطة بزاوية نظر محددة. كما أن النتائج النوعية غالبا ما تكون سياقية، يصعب تعميمها على مجتمعات أخرى. وقد أدى ذلك إلى بروز نقاشات إبستمولوجية حول إمكانية القياس في الأنثروبولوجيا أصلا، وهل يمكن للثقافة أن تخضع لمنطق القياس، أم أنها تتطلب مقاربات أكثر مرونة.

ومن جهة أخرى أظهرت التحولات الاجتماعية المعاصرة أن الثقافة هي عملية ديناميكية تتشكل عبر التفاعل المستمر بين المحلي والعالمي. وهذا ما كشف محدودية النماذج الكلاسيكية التي كانت تفترض وجود مجتمعات متجانسة يمكن دراستها كوحدات مستقلة. كما أن التداخل بين الأبعاد الاقتصادية والسياسية والرمزية جعل القياس التقليدي غير كاف لفهم التعقيد الثقافي. لذلك يمكن القول إن حدود القياس الكلاسيكي دفعت الأنثروبولوجيا إلى إعادة التفكير في أدواتها المنهجية، والبحث عن مقاربات تجمع بين الكمي والنوعي، وتراعي الطابع الديناميكي للثقافة. فقد أصبح القياس في الأنثروبولوجيا المعاصرة أكثر مرونة، يعتمد على تعددية الأدوات، وعلى الجمع بين البيانات الإحصائية والوصف الإثنوغرافي، في محاولة لفهم الثقافة بوصفها منظومة معقدة لا يمكن اختزالها في بعد واحد.

وبذلك يتضح أن القياس في الأنثروبولوجيا التقليدية مر بمسار تطوري انتقل من النزعة الكمية إلى الوصف النوعي، ثم إلى إدراك حدود كل منهما. وقد أسهم هذا المسار في بلورة وعي إبستمولوجي جديد يؤكد أن فهم الثقافة يتطلب أدوات متعددة، تجمع بين الدقة المنهجية والعمق التأويلي، وتدرك أن الثقافة ليست مجرد موضوع للقياس، بل فضاء للمعنى والتجربة الإنسانية.

3_ التحول نحو المعالجة الذكية في البحث الاثنوغرافي:

يشهد الحقل الأنثروبولوجي المعاصر تحولا إبستمولوجيا ومنهجيا عميقا ارتبط بتطور أدوات البحث وتنامي التعقيد الثقافي في المجتمعات المعاصرة، وهو ما أدى إلى إعادة التفكير في مفهوم التقويم ذاته، بحيث أصبح تقويما ذكيا يدمج بين الفهم التأويلي، وتحليل البيانات متعددة

الأشكال، واستخدام الوسائط الرقمية في إنتاج المعرفة الأنثروبولوجية. لقد انتقلت الأنثروبولوجيا من نموذج يعتمد على الملاحظة والوصف فقط إلى نموذج يدمج بين الوصف والتفسير والتحليل المعزز بالتكنولوجيا، الأمر الذي أفرز ما يمكن تسميته بالتقويم الذكي، وهو تقويم يتسم بالدينامية، والتعدد المنهجي، والقدرة على معالجة البيانات المعقدة، وفهم الثقافة في سياقاتها المتغيرة. وفي هذا الإطار يمكن تناول التحول في الأنثروبولوجيا المعاصرة من خلال ثلاثة محاور مترابطة: الانتقال من الوصف إلى التأويل، وتحليل البيانات النوعية والرقمية بالحاسوب، ثم الإثنوغرافيا الرقمية بوصفها أفقا جديدا للبحث الأنثروبولوجي.

مثل الانتقال من الوصف إلى التأويل تحولا جوهريا في طبيعة البحث الأنثروبولوجي المعاصر، إذ لم يعد الهدف الأساسي للباحث هو تسجيل الوقائع الاجتماعية كما تبدو، بل فهم المعاني الكامنة وراءها، وتحليل الشبكات الرمزية التي تشكل الثقافة. حيث "صار العالم البشري والمجتمع والثقافة تحت تأثير الهرمينوطيقا نصوصا لا تتطلب التفسير بقدر ما تتطلب التأويل" (ادريس، 2022، صفحة 46) ،فالوصف رغم أهميته كمرحلة أولى في البحث الميداني، يظل محدودا إذا لم يدعم بعملية تأويلية تكشف عن دلالات الأفعال الاجتماعية. ومن هنا أصبح التقويم الذكي قائما على دمج الوصف الدقيق مع القراءة التحليلية التي تسعى إلى تفسير السلوكيات في سياقها الثقافي.

إن الانتقال إلى التأويل يعني أن الباحث أصبح فاعلا معرفيا يسهم في بناء المعنى من خلال التفاعل مع الميدان. فالممارسات اليومية، والطقوس، والخطابات، والرموز الثقافية، لم تعد تُفهم بوصفها معطيات ثابتة، بل بوصفها نصوصًا اجتماعية قابلة للقراءة والتفسير. وقد أدى ذلك إلى تعزيز الطابع التأويلي للتقويم، حيث يتم تحليل الأفعال الاجتماعية بوصفها تعبيرات رمزية تعكس أنظمة القيم والتمثلات الثقافية.

كما أن التحول المنهجي والمعرفي في هذا السياق يعتمد على تعددية المصادر، إذ لا يقتصر على الملاحظة المباشرة، بل يشمل تحليل الخطاب، ودراسة السرديات المحلية، وتتبع التحولات في المعاني الثقافية عبر الزمن. ويتيح هذا التوجه بناء فهم أكثر عمقا للثقافة، حيث يتم ربط الجزئيات الميدانية بالبنى الرمزية الأوسع. وهكذا يصبح التقويم عملية مركبة تجمع بين الوصف الدقيق والتحليل التأويلي، بما يسمح بفهم الظواهر الاجتماعية في مستوياتها المتعددة، هذا التحول يعيد توظيف الوصف ضمن إطار تأويلي أوسع. فالوصف يشكل قاعدة البيانات الأولية التي تبنى عليها عملية التفسير؛ بل حتى رائد التأويلية كليفورد غيرتز لم يستغنى عن الوصف بل طور المفهوم الى الوصف المكثف أو الكثيف الذي يعني به منهج أو أسلوب عمل يسمح للباحث ببناء موضوعه والتأسيس لتأويلاته الثقافية" (ادريس، 2022، صفحة 50) بينما يعمل التأويل على ربط هذه

البيانات بسياقها الثقافي والاجتماعي. وبذلك يتحول التقويم إلى عملية دينامية تنتقل من تسجيل الوقائع إلى تحليل المعاني، ومن ملاحظة السلوك إلى فهم الدلالات الرمزية التي تشكّل الثقافة.

مع تطور التكنولوجيا الرقمية، دخلت الأنثروبولوجيا مرحلة جديدة أصبح فيها الحاسوب أداة مركزية في تحليل البيانات، سواء كانت نوعية أو كمية. وقد أدى ذلك إلى ظهور ما يمكن تسميته بالتقويم المدعوم بالحوسبة، حيث يتم استخدام برامج متخصصة لتنظيم البيانات الميدانية، وترميزها، وتحليلها بشكل منهجي. ويعد هذا التحول أحد أبرز ملامح التقويم الذكي، إذ يسمح بمعالجة كميات كبيرة من البيانات التي يصعب تحليلها يدويا ونموذج البرامج التي تقوم بهذه العملية: - spss-alceste- voyant tools هذه ثلاث نماذج تقوم بتحليل بيانات نوعية وإحصائية ففي تحليل البيانات النوعية، يتم استخدام الحاسوب لترميز المقابلات الميدانية، والملاحظات الإثنوغرافية، والنصوص الثقافية، بحيث يتم تصنيفها وفق محاور موضوعية. ويساعد هذا الأسلوب على الكشف عن الأنماط المتكررة، والعلاقات بين المفاهيم، والتغيرات في الخطاب الثقافي. كما يتيح الحاسوب إمكانية الربط بين البيانات المختلفة، مما يعزز القدرة على بناء تحليل شامل يجمع بين المستويات المتعددة للظاهرة المدروسة.

أما في الجانب الكمي، فقد أصبح بالإمكان دمج البيانات الإحصائية مع المعطيات النوعية، في إطار مقاربة متعددة المناهج. فالباحث الأنثروبولوجي المعاصر لم يعد يكتفي بالملاحظة، بل يستخدم أيضا أدوات تحليل الشبكات الاجتماعية، وتحليل الترددات اللغوية، والخرائط الرقمية، مما يسمح بفهم أكثر دقة للبنى الاجتماعية والثقافية. ويعزز هذا التكامل بين الكمي والنوعي قدرة التقويم الذكي على تقديم صورة مركبة عن الظواهر الاجتماعية. كما أن استخدام الحاسوب يساهم في تعزيز الشفافية المنهجية، إذ يمكن تتبع خطوات التحليل، ومراجعة الترميزات، وإعادة تنظيم البيانات بسهولة. وهذا ما يمنح التقويم الأنثروبولوجي طابعا أكثر دقة ومنهجية، دون أن يفقد عمقه التأويلي. فالهدف ليس استبدال الفهم الإنساني بالتكنولوجيا، بل توظيف التكنولوجيا لدعم عملية التحليل وتوسيع آفاقها. ومن جهة أخرى يتيح التحليل الحاسوبي إمكانية العمل على بيانات متعددة الوسائط، مثل الصور والفيديوهات والتسجيلات الصوتية، مما يوسع نطاق المادة الإثنوغرافية. وهكذا يصبح التقويم الذكي عملية متعددة الأبعاد، تجمع بين النصوص والصور والأصوات، وتستخدم أدوات تحليل متقدمة لفهم الثقافة في تعقيدها.

4_ الحقل الإثنوغرافي من المجال التقليدي إلى الفضاء الرقمي:

تعد الاثنوغرافيا الرقمية أحد أبرز تجليات التقويم الذكي في الأنثروبولوجيا المعاصرة، إذ انتقل البحث الأنثروبولوجي من الميدان التقليدي إلى الفضاءات الرقمية، مثل الشبكات الاجتماعية، والمنتديات الإلكترونية، والمنصات الافتراضية. وقد فرض هذا التحول إعادة تعريف

مفهوم الميدان، بحيث لم يعد مرتبطا بمكان جغرافي محدد، بل أصبح يمتد إلى فضاءات افتراضية تتشكل فيها هويات وثقافات جديدة.

تقوم الإثنوغرافيا الرقمية على دراسة التفاعلات الاجتماعية في البيئة الرقمية، وتحليل الخطابات المتداولة، وتتبع أنماط التواصل عبر الإنترنت. ويتيح هذا التوجه فهم التحولات الثقافية المرتبطة بالعولمة والتكنولوجيا، حيث تتشكل مجتمعات افتراضية تتجاوز الحدود الجغرافية. وقد أدى ذلك إلى توسيع نطاق التقويم الأنثروبولوجي، بحيث يشمل تحليل الهويات الرقمية، والطقوس الافتراضية، وأنماط التفاعل الإلكتروني.

كما أن الإثنوغرافيا الرقمية تعتمد على أدوات تحليل رقمية، مثل تتبع البيانات، وتحليل الشبكات، ودراسة التفاعلات الزمنية، مما يعزز الطابع الذكي للتقويم. فالباحث لا يكتفي بالملاحظة، بل يستخدم أدوات رقمية لرصد التحولات في الخطاب الثقافي، وتحليل ديناميات التواصل. وهذا ما يسمح بفهم الثقافة الرقمية بوصفها ظاهرة دينامية تتغير باستمرار.

إضافة إلى ذلك، تطرح الإثنوغرافيا الرقمية تحديات منهجية وأخلاقية جديدة، تتعلق بخصوصية المشاركين، وحدود الملاحظة، وطبيعة التفاعل بين الباحث والمجتمع المدروس. غير أن هذه التحديات أسهمت في تطوير أدوات تقويم أكثر مرونة، تراعي الطابع التفاعلي للفضاءات الرقمية. وهكذا يصبح التقويم الذكي في الإثنوغرافيا الرقمية عملية تجمع بين التحليل التقني والفهم الثقافي، في إطار مقاربة متعددة الأبعاد. وبذلك يتضح أن التقويم الذكي في الأنثروبولوجيا المعاصرة يمثل تحولا نوعيا في فهم الثقافة ودراستها، إذ يجمع بين الانتقال من الوصف إلى التأويل، واستخدام الحوسبة في تحليل البيانات، وتوسيع الميدان إلى الفضاء الرقمي. وقد أسهم هذا التحول في بناء مقاربة أكثر شمولا وديناميةً، قادرة على فهم الثقافة في سياقاتها المتغيرة، وتوظيف التكنولوجيا دون التخلي عن العمق التأويلي الذي يميز الأنثروبولوجيا كعلم للمعنى والتجربة الإنسانية.

إن صناعة القيمة في البحث الأنثروبولوجي المعاصر أصبحت عملية مركبة تهدف إلى تحويل الفهم الثقافي العميق إلى معرفة قابلة للتطبيق تسهم في توجيه السياسات العامة وصياغة التدخلات الاجتماعية. فالأنثروبولوجيا، بحكم اهتمامها بالبنى الرمزية والممارسات اليومية، تمتلك قدرة فريدة على الكشف عن المعاني الكامنة وراء السلوك الاجتماعي، وهو ما يمنحها دورا استراتيجيا في دعم السياسات الثقافية القائمة على فهم الواقع بدل فرض نماذج جاهزة عليه. ومن هنا تتجلى القيمة التطبيقية للبحث الأنثروبولوجي في قدرته على ربط التحليل النظري بالميدان، وتحويل النتائج الإثنوغرافية إلى أدوات تساعد صناع القرار على فهم الحساسيات الثقافية، وتجنب الصدام مع القيم المحلية، وتعزيز مقاربات تنموية تراعي الخصوصيات

الاجتماعية. كما أن صناعة القيمة تعني أيضا إنتاج معرفة قابلة للتداول بين الباحثين والمؤسسات، بحيث تصبح الأنثروبولوجيا وسيط معرفي بين المجتمع والسياسة، تسهم في تفسير التحولات الثقافية المرتبطة بالعولمة، والهجرة، والتحول الرقمي، وإعادة تشكيل الهويات. وبهذا المعنى لا تقتصر القيمة على الجانب الأكاديمي، إنما تمتد إلى المجال العملي، حيث يمكن للبحث الأنثروبولوجي أن يدعم تصميم برامج ثقافية، وتطوير سياسات تعليمية، وتحسين آليات التواصل بين الدولة والمجتمع، عبر فهم عميق للتمثلات المحلية والرهانات الرمزية التي تحكم الفعل الاجتماعي، وفي السياق ذاته فإن إنتاج معرفة أنثروبولوجية قابلة للتطبيق يتطلب اعتماد مقاربة تكاملية تجمع بين التحليل التأويلي واستخدام الأدوات الرقمية والتفاعل مع الفاعلين الاجتماعيين، بما يسمح بفهم التحولات الاجتماعية في ديناميتها وتعقيدها. فالمجتمعات المعاصرة تشهد تغيرات متسارعة في أنماط العيش، وأشكال التضامن، والتمثلات الثقافية، الأمر الذي يجعل من الضروري تطوير معرفة مرنة قادرة على مرافقة هذه التحولات. وهنا تظهر الأنثروبولوجيا كحقل قادر على تقديم قراءة متعددة المستويات تربط بين المحلي والعالمي، وبين البنى الرمزية والتحولات الاقتصادية والسياسية. إن صناعة القيمة في هذا الإطار تعني تحويل النتائج البحثية إلى توصيات عملية تدعم سياسات ثقافية تستند إلى الفهم الميداني، مثل تعزيز التنوع الثقافي، أو إدارة التحولات الحضرية، أو دعم التراث غير المادي، أو مواكبة التحولات الرقمية في أنماط التواصل الاجتماعي. كما تسمح هذه المعرفة التطبيقية بتوقع التغيرات الاجتماعية بدل الاكتفاء بوصفها، مما يمنح صناع القرار أدوات استشرافية تساعد على بناء سياسات أكثر استدامة. وبذلك يصبح البحث الأنثروبولوجي فضاء لإنتاج معرفة ذات أثر اجتماعي ملموس، تجمع بين العمق النظري والجدوى العملية، وتسهم في بناء سياسات ثقافية قائمة على الفهم، وتعزيز القدرة على قراءة التحولات الاجتماعية في سياقها التاريخي والرمزي، بما يدعم التنمية الثقافية ويعزز الحوار بين المعرفة الأكاديمية والواقع الاجتماعي.

خاتمة:

في ضوء ما سبق يتضح أن التحولات المنهجية التي شهدتها الأنثروبولوجيا تمثل من جهة انتقال تقني في أدوات البحث، ومن جهة أخرى تعكس تحولا إبستمولوجيا عميقا في كيفية فهم الثقافة وإنتاج المعرفة حولها. فقد انتقل الحقل الأنثروبولوجي من منطق القياس الذي يركز على ضبط الظواهر وتصنيفها، إلى منطق التقويم الذكي الذي يسعى إلى تحليل المعاني وربطها بسياقاتها الاجتماعية والرمزية، مع توظيف أدوات رقمية ومنهجية متعددة. هذا التحول أعاد تعريف موقع الباحث، الذي أصبح فاعلا معرفيا يشارك في بناء المعنى من خلال التفاعل مع الفاعلين

الاجتماعيين، بما يتيح إنتاج معرفة أكثر حساسية للتعقيد الثقافي وأكثر قدرة على تفسير التحولات الاجتماعية.

كما أن الانتقال من الوصف إلى التأويل، ومن المعالجة اليدوية للمعطيات إلى التحليل المدعوم بالحوسبة، أفضى إلى بلورة مقاربة متعددة المناهج تجمع بين الكمي والنوعي، وتربط بين التحليل النظري والتطبيق الميداني. وقد سمح هذا التوجه بإعادة توظيف البيانات الإثنوغرافية باعتبارها مادة أولية لصناعة معرفة ذات قيمة علمية ومجتمعية، تتجاوز حدود التوثيق نحو الإسهام في فهم التحولات الثقافية ومرافقتها فالأنثروبولوجيا المعاصرة أصبحت تشارك في تفسيره وتوجيه قراءاته، من خلال تحليل الخطابات والممارسات وربطها بالبنى الاقتصادية والسياسية والتكنولوجية.

ومن ثم فإن التحول الميتودولوجي الذي أطلقنا عليه مفهوم التقويم الذكي الذي استعرناه مباشرة من تخصص علم المكتبات يمثل أفقا منهجيا يسمح للبحث الأنثروبولوجي بالانخراط في قضايا معاصرة تتعلق بالعولمة، والتحولات الرقمية، وإعادة تشكيل الهويات، مع تعزيز القدرة على إنتاج معرفة قابلة للتطبيق. وبذلك تتحول الأنثروبولوجيا إلى وسيط معرفي يربط بين التحليل الأكاديمي وصناعة السياسات الثقافية، ويؤسس لفهم متعدد المستويات يدمج بين المحلي والعالمي، وبين الرمزي والمادي. إن هذا التحول يكرس الأنثروبولوجيا كحقل قادر على مرافقة التحولات الاجتماعية، وإنتاج معرفة تفسيرية تسهم في بناء سياسات ثقافية وتنموية تستند إلى الفهم العميق للواقع، وهو ما يجعل من التقويم الذكي ضرورة معرفية لفهم الثقافة في عالم متغير باستمرار.

قائمة المراجع

خميس حياة. (2023). المنهج الاثنوغرافي واستخداماته في الدراسات الانثروبولوجية. *العلوم الانسانية والاجتماعية ، 09* (02)، 806-823.

سامية ادريس. (2022). المنعطف التأويلي في العلوم الانسانية والأنثروبولوجيا الثقافية نموذجا. *التأويل وتحليل الخطاب ، 03* (خاص)، 41-56.

محمد عبده محجوب، و عيد بدر يحيى مرسي. (2005). *التراث الشعبي العربي -دراسات حقلية في مصر وليبيا-* (الإصدار 1). مصر: دار الثقافة العلمية.

قائمة المراجع الأجنبية

georeg mucchielli.(1982) . lanalyse de contenu des documents et des comunication. paris: e.s.p enterprise moderne d'edition.

Mucchielli, R. (1982). l'analyse de contenu des documents et des communications. PARIS: Enterprise moderne d'edition.

References

Khamis Hayat. (2023). The Ethnographic Approach and Its Uses in Anthropological Studies. Humanities and Social Sciences, 09 (02), 806-823.

Samia Idris. (2022). The Hermeneutical Turn in the Humanities and Cultural Anthropology as a Model. Interpretation and Discourse Analysis, 03 (Special), 41-56.

Muhammad Abdo Mahjoub and Eid Badr Yahya Morsi. (2005). Arab Folklore - Field Studies in Egypt and Libya - (1st Edition). Egypt: Dar Al-Thaqafa Al-Ilmiya.

R. Mucchielli. (1982). Content Analysis of Documents and Communications. Paris: E.S.P. Enterprise Moderne d'Edition.

Mucchielli, R. (1982). Content Analysis of Documents and Communications. Paris: Enterprise Moderne d'Edition.